أبعاد الخطاب الديني التداولية في ضوء آلياته اللسانية وأسسه المعرفية

أ، حمريط جلول سليم
جامعة أحمد بن بلة (1)
وهران

الملخص:
يفترض الخطاب الديني تواجد متخاطبين مرسل ومتلق،كما أن ظروف إنتاج الخطاب الديني تنسجم بوجه عام بالمعارف القبلية، كأرضية صلبة باعتبارها عملية فكرية،ذات حركة تفاعلية نشيطة .
والخطاب الديني يسعى إلى إبراز الصفات الكامنة وراء اللغة،كنظام لتبليغ ما وراء الخطاب من مقاصد.
والخطاب الديني عند الغرب نسيج تتشابك خيوطه،بينما الخطاب الديني عند العرب هو:الإبانة والإفصاح وهو الشأن والأمر،والقصد من ورائهما.
يتبع ذلك العناصر المشكلة للعملية الخطابية التأويلية، انطلاقا من العلوم الحديثة والتي لها منهجيات حديثة أيضا،في تفكيك شفرات الخطاب الديني بقراءة النص لتحقيق المسعى.
الكلمات المفتاحية:
خطاب ديني – معارف قبلية – آليات – تداولية – بنية الخطاب – هامش تأويلي – مجال لساني – علوم الخطاب.

* أبعاد الخطاب الديني التداولية ،في ضوء آلياته اللسانية، وأسسه المعرفية:

تتطلب تداولية الخطاب الديني تواجد متخاطبين، ضمن وضعية معيّنة بخصائص يتضمّنها هذا الخطاب وفق آليات إنتاج المعنى اللسانية لتتحقّق الأدلة اللغوية، بحيث يعتبر المتلفّظ والسامعُ جزئين من هذه الوضعية التلفّظية في الخطاب الديني، لارتباط هذا الخطاب بمقام انجازه، وتتحدّد مسافته اللّفظية ببنية لسانية ومتتالية من انزياح بلاغي، وظاهرة سيميائية تبرز العلاقة بين العلامات ومستعملها، باعتبار فضاء القراءة المتّصل بالخطاب الديني، والذّي يتحوّل ليصبح ميدانا فسيحا للتأويل .

- فإلى أي مدى يمكن رصد هذه الإحالات التداولية في عملية التواصل ؟
- وكيف تتنوّع البنيات اللسانية والبلاغية والسيميائية في الخطاب الديني ؟
- وما هو أثر السياق في تحديد تداولية الخطاب الديني ؟
- وكيف نستشفّ صدى إستراتيجية التأثير في المخاطب ؟

يجتاز الخطاب الديني أيًّا كان نوعه قناة في ذهن المخاطب ،بل قنوات ومراحل تأملية واختمارية تتبلور بشكل أو بآخر، قبل أن تتشكل في محطتها الجنينية .

إذ يعتبر مشروعا في حد ذاته باعتبار أن كل مشروع يفترض فيه أن يخرج من التصور الذهني إلى تصميم الجانب العملي التطبيقي.

والنظر في الغالب عند أهل هذا الفن من الخطاب الديني،أنهم ينظرون إلى محتوى العمل،ومضمونه ،ثم عن شكله الخطابي، وأسس مقوماته من باب التبسيط.

الخطاب الديني

أخذ الخطاب الديني حضوة واسعة في لسان العرب .....فمادّة خطب استهلكت ما يعادل أربع صفحات تعج معظمها بالشواهد القرآنية والأحاديث النبوية، وغيرها من شعر وأقوال .

وفي القرآن الكريم وحده تكررت لفظة الخطاب الديني عدة مرات .

وكيفما كان التناول فإن مادة خطب: تعني الأمر الذي تقع فيه المخاطبة ، وهو

بمثابة رسالة تحمل في طياتها خطابا، والخطاب ينطوي على مشروع ذا أهمية ،أو هو الأمر والشأن ،والسبب الذي وقع من أجله الخطاب، هكذا ورد في معظم المعاجم.

اشتقت لفظة الخطابة من الخطب أي: الأمر الجلل "لأن الخطابة تقوى إبّان الخطوب بين القبائل وهي نوع من النثر الفني يراد به إقناع السامع بما يريده الخطيب، وهي فن إقناع السامعين والتأثير فيهم بشرط أن يكون الكلام مطابقًا لمقتضى الحال، أي موافقا للزمان والمكان والبيئة الاجتماعية ومستوى العقلية للجماهير".[1]

لقد حثّ الإسلام على طلب العلم وتعهُّد العلوم الدخيلة ،فنقل الكثير من علم الغرب، فهاهو القرآن يدعو إلى العلم في غير آية:﴿وقل رب زدني علما﴾ طه 114،﴿والراسخون في العلم..﴾ آل عمران الآية 7 ،﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون...﴾الزمر الآية 9.[2]

والراسخون في العلم هم العلماء ،وقناة العلم هي الخطاب و قال تعالى:﴿ما خطبكما﴾القصص 23

أي ما الأمر وما الشأن ،وقال تعالى كذلك:﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ الذاريات الآية 31 أي ما الشأن العظيم الذي تريدون ،فوقع ذلك الاتصال بكلام لغوي يحمل خطابا

ولعل ما يوضح أكثر غموض هذا التعريف،" تعدد هذه المسالك النظرية التي يجوز أن يحتمله كل منها على الرغم، من التباعد الموضوع بينها".[3]

وبذلك فالخطاب الديني ،من أهم دلالاته معنى التعامل، وهو ما تفرع عن المعاملات التخاطبية التي يرتكز عليها ، ولا يكون التخاطب ذا فاعلية إلا إذا وجد صدى.

و الحديث الشريف وغيره من أقوال العلماء، بما حفل به من دعوة إلى العلم ،وإجلال المتعلمين يشدّ عضد الخطاب الديني باعتباره مركز الثقل، والكلية الخلفية للنص، بين الدلالة والتأويل، وبين التداولية والمسارات الجزئية أو ما يسمى بالدلالة العقلية في مقابل الدلالة الوضعية .

كل هذه الأبعاد تدل في جوهرها على معنى التعامل، وإقامة علاقات تعاملية تفاعلية ،وهو مضمون الخطاب الديني يتخذ فيه الكلام محورا هاما، وحيزا بارزا يكون فيه اللفظ بمثابة الوتر من القوس بل تبرز كلها مجتمعة على كيفية التعامل والتواصل بين جانبين أو طبيعتين تتفاوت مراتبهما ،باعتبار الإنسان هو خليفة الله في أرضه يمشي في مناكبها، وعيشه تحت رعاية الله دون عنف أو عداء ،ودون حقد أو دسائس، اعتمادا من أن الخطاب الديني له قوانينه الخاصة وطبيعته الخاصة،لا يطلب صدقة أو التماسا من الواقع ، بل يلتمس صدقة من النص الذي يحكمه .

الواقع أن هناك كثيرين يجهلون الخدمات التي قدمها العرب للحضارة والعلوم ،بل إن هؤلاء من يعتقد أن العقل العربي لم يستطع في جميع الأدوار التي مرت عليه ،أن يقدم للمدنية خدمات علمية جليلة كالتي قدمها الغرب،" وأنه لم يكن بين العرب من استطاع أن يصل علميا درجة غاليلو ونيوتن ...وغيرهم".[4]

ولربما كان السبب الواضح بجدارة لذلك ،هو شدة التحامل الذي يوليه الغرب على

التراث العربي أضف إلى ذلك ما أصاب العلوم العربية من إهمال واندثار.

بينما نجد أن العرب قد أولوا الخطاب الديني عناية لا يستهان بها ،وفي المشتقات القريبة من اللفظ الخطاب، الخطبة، والخطاب، والمخاطبة ،الخطب ...وغيرها وهي لا تذهب في دلالتها كثيرا عن سياق الحال والشأن اعتمادا على اللغة.

"فالإنسان كائن لغوي يفكر باللغة ،ويختزل وجوده فيها ،ولا شيء له معنى يمكن إدراكه وفهم جوهره، خارج حدودها لا لسبب إلا لأن الأشكال الرمزية للدلالة لا تتحقق إلا بأشكال الأبنية الرمزية الفاعلة فيها".[5]

يتخيل البعض من قادة الفكر والحرية والانطلاق والحناجر المدوية وغير المعروفة من أصحاب الأقلام البارزة أنهم مجددون في ركوب أساليب الخطاب الديني بغية تمريره كخطاب تجديدي معاصر.

ولربما يكون القصد امتطاء سلم الريادة بعلاج التخلف الحاصل ،أو بغية قصد آخر.

دون وضع آليات الخطاب الديني في الحسبان وهي:

- الالتزام الثابت على جادة الحق والصواب .
- الرجوع إلى أصل ومنابع روافد عز الأمة .
- التجاوب بشكل إيجابي مع القيم الواضحة والقريبة العهد من المصدر الأم.
- إعمال الفكر باستخدام العقل في كل ما من شأنه إبراز جوهر الدين النظيف.

" فالهجوم على التفكير العقلي ،ورفض الخلاف والتعددية قديما وحديثا ،يمثل أساسا من الأسس التي يقوم عليها".[6]

وبهذا يتبين أن حقيقة الكلام ليست هي الدخول في علاقة بألفاظ معينة ،بقدر ما هي الدخول في علاقة مع الغير ، بمعنى أن ما يحدد ماهية الكلام إنما هو العلاقة التخاطبية وليس العلاقة اللفظية ،ولأدل على ذلك من أن اللفظ المخاطب به يتحدد بالمدلول الموضوع له والمحفوظ في المعاجم ،وإنما بالقصد الذي يكون منه لدى المتكلم عند النطق به .

فاللغة باعتبارها مادة معلومة ،موجودة في تصوراتنا وأقوالنا وخطاباتنا ،ولذلك اكتست أهمية كبيرة وكانت محل انطلاق المدارس الخطابية الدينية ،وبذلك فهي تخضع للسياق النصي.

ولذلك ظلت الخطابة بشكل عام ،والخطاب الديني بشأن خاص ذا تأثير محكم ،وبخاصة كلما كانت تمجد الحق، وتدعو إلى الفكر النير والصراط القويم ." ويتدخل التلفظ باعتباره إجراء اللغة بمقتضى فعل فردي في الاستعمال ،في مصطلح التداولية كمفهوم للممارسة والتفاعل مع الآخر".[7]

فالخطاب الديني موغل في القِدم ،مر بمراحل عديدة إلى غاية استوائه ،ووصل فيما وصل إلى ما هو عليه الآن في صورة تامة بقدر ما نعرفها "إن تخاطب شخصين يعني فرض اختيارات متعددة كطريقة الكلام وتركيب الجمل ... ثم موقف المتكلم إزاء مخاطبه من تحذير، تهديد ،أمر ،نهي ... وما يدور بينهما من حديث".[8]

ودیننا یحثّ على المجادلة والمناقشة الحسنة ،" وكل شيء في الإسلام قابل للمناقشة العقلية ابتداءً من وجود الله تعالى إلى أبسط المسائل".[9]

ومنه استمد الخطاب الديني قوته وازدهاره ،وأضاف إلى ألفاظه بعض التعديلات في الأدلة والبراهين ودحر الخصم بمختلف الحجج،فهي حافلة بفصاحة العبارة وذكر التفسير والتعليل للإفهام والتبيان .

"واختصار الدلالة يحكمه توتر متعدد ،توتر اللغة في دلالتها الذاتية مما جعلها قابلة لتعدد التفسير ،وكوثر دلالتها الباطنية على الوجود" .[10]

ومعنى ذلك أن الدال يشير إلى مدلول بعينه كامل الثبات ،مهما تكررت أي علامة تدل عليه ولكن في المستوى الوجودي فالمشار إليه في تخلق جديد .

وهو ما اعتمده البنيويون في تحليله للوصول إلى معنى الخطاب الديني بلغة غير مألوفة ومغايرة لما ألفه رجال الدين ،وهو ما اصطلح عليه في تفسير سورة الفاتحة باللحظة اللسانية والأنثروبولوجيا التاريخية

وفي هذا المقام تتضح لنا الإشكالية المطروحة وهي التي تتعلق بمعرفة الحدود الفاصلة بين وحدات اللغة ووحدات الإنجاز ،أين تتوقف تداخلات اللغة .[11] ولربما كبار المفكرين والنخبة من الباحثين، هم الذين يستطيعون فك شفرات بعض المفاهيم وكذا المصطلحات واستثمارها لصالح الخطاب الديني ،ومواجهة بعض الاعتراضات والطروحات التي تقف حائلا أماما الوصول للمبتغى، ومن هذا المبتغى القيم التثقيفية التي تسربل الخطاب الديني .

والمبدأ الأساس في الإسلام أنه ﴿لا إكراه في الدين ﴾ البقرة 255،وهذا المبدأ ينطوي على أرفع معاني التسامح والحرية الفكرية.[12]

فالطرح في الوظيفة والآليات المعرفية للخطاب الديني ،تخلق كل الأفكار الجديدة والألفاظ الإيجابية لمحاولة إدراك مثالية الخطاب الديني ،لتأويله وفق قراءة مضيئة ، بإيحاءات بناءة تخدم النص الخطابي، "وقد حاول بعض أعداء الإسلام القدح عليه بعدة مسائل يبغون من ورائها إظهاره بالتعصب والقسوة في معاملة أصحاب الديانات الأخرى ".[13]

ورُمي بالخطاب الديني في متاهات وغياهب ،فأصبح مستعملوه في تناقص ،وتصدر المنابر الخطابية من يأمر الناس وينسى نفسه ، ومن يدافع عن القيم والمثل والمبادئ ويدوس عليها ،من قصد أو غير قصد. "الخطاب نسيج من الألفاظ ،والنسيج مظهر من النظام الكلامي الذي يتخذ له خصائص لسانية تميزه عن سواه، من أجل ذلك نجد في بعض الأطوار الموضوعة يتكرر هو نفسه لدى أكثر من مبدع".[14]

فخطاب الفرد أو الجماعات يتسم أحيانا بفكر الفرد أو الجماعة نفسها،أي هو امتدادا طبيعي للفكر المعتنق وهو في جوهره إهدار للطاقة ومن دون ترشيد ،بسبب الموقف الإيديولوجي السالف الذكر.

"وتمكن الملكة المنطقية المستعمل، من اشتقاق معارف إضافية من معارف متوفرة لديه بواسطة قواعد استدلال".[15] لذلك تكون بعض الأطروحات غير ناضجة ولا مسؤولة تنم عن شبابية المخاطب يجمعها لينسق بها بنية لفظية لا تقدم للدين مفهوما

ولا رؤية ناتجة عن روية ولربما تكون مستهلكة ومشوهة متجاهلة بعض الجوانب .

ومن خصائص العامة أنهم يجبُنون عن التفكير المستقل لأنه محتاج إلى استعداد فطري وإرادة وجرأة ،ثم يتعلقون بما يدين به المجموع ،وهم يتمسكون دائما بمظاهر الأمور ويقيدون أنفسهم بالألفاظ "كما أنهم شديدو الإجلال للأشخاص إذا اعتقدوا في شخص ما مقدرة ما تبعوه خطأ أم صواباً ذلك لأنهم قلما يستطيعون فهم المبادئ وقلما يفطنون لما يريد الشرع".[16]

ولا يكاد ينقضي العجب عندما يكون هذا الشيء المقدم هو علاج التخلف التقني وهو ما يؤكد كونهم مقلدين للغرب في تعاملهم مع الدين انطلاقا من "أن كل نص نتلقفه ونؤوله فهو وثيق بالتأويل ".[17]

أما الخاصة: من ذوي الفطرة الفائقة فهم أهل التفكير. وهم فيما يتعلق بالدين "أشدّ غوصا على المعاني الروحية وأكثر رغبة في تأويل الألفاظ التي لا يوافق ظاهرها مقتضى المنطق والعقل".[18]

فالواجب مواجهة تعدد القراء واختلاف شرائحهم بتطبيق منهجية محكمة على النصوص الدينية أيا كانت وحسب أوساطها وبيئاتها السياسية والاجتماعية والثقافية ،مع توظيف جماليات التلقي عند كل شريحة من المجتمع حتى تتلقاها بنوع من المخايل الفكرية النافذة والمشكلة أصلا في أذهانها.

الرسل عامة لا يختارون إلا من الأفراد الناهين عن ذوي العقول النيرة والعزيمة الماضية والأخلاق الكريمة ومن ذوي المكانة في أقوامهم وعلى هذا قول الله تعالى:﴿وإذ جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نوتي مثلما أوتي رسل الله﴾الأنعام 06.[19]

﴿ولكن الله يعلم أين يضع رسالته ﴾ الأنعام 125 .

فالعلماء هم العالمون بأسرار الخلق التي أودعها الله على هذه الأرض وموضوع هذا الخطاب الديني هو نفسه موضوع العلم الطبيعي، فالعالم الطبيعي يبحث عن الأشياء الكونية وطبائعها وخواصها، والعلاقات التي بينها، والخطاب الديني بالتلقي أو السماع مشافهة أو كتابة نصية من دعاة ثقات في علمهم وعملهم.

يختلف الخطاب في اللغات الطبيعية من حيث حجمه، فيرد جملة أو سلسلة من الجمل أو نصاً متكاملا "كما يختلف من حيث نمطه فيكون خطابًا سرديًا أو خطابًا أو حجاجيًا أو خطابا فنيا أو خطابا علميا إلى غير ذلك من الأنماط الخطابية المعروفة ".[20]

وعلى هذا النحو لفت القرآن أنظار الناس فيما يتعلق بعقيدة الألوهية، أما فيما يتعلق بالرسالات عامة والخطاب الديني بوجه الخصوص فقد قامت الأدلة على أن القرآن من عند الله ... وأن الدعوة تنطلق منه وتعود إليه.

وإذا كان اكتشاف الدلالة لا يتم إلا من خلال التفسير بالمعنى الذي شرحناه "فإنما بعد عملية التأويل هما الدلالة والمغزى ، يتوازيان مع الدلالتين اللغويتين لمصطلح التأويل".[21]

ر وهو الفهم الذي اعتمدته نظرية الأفعال اللغوية بكون مجموع وظائف الاتصال لا تنطوي تحت مدلول اللغة أو المعلومات فحسب، بل هي حركية أو نشاط حركي متداخل ومعقد يتطلب التخاطب بين مرسل ومستمع.

القاعدة إذن في الحكم الإسلامي هي التسامح الديني، "وقد درجت الحكومة الإسلامية في صدر الإسلام بصفة خاصة على احترام كافة الأديان وعدم التدخل بين الإنسان وعقيدته أو منعه من القيام بشعائر دينية".[22]

والخطاب الديني مغالبة المبادئ الروحية والدعوة إلى استلزام النخبة بكثير من التناظر في ضبط خصائص العلامة التخاطبية للكشف عن تركيب انشائي يكون فيه من الأدلة ما يدعم الاعتبارات السياقية، "المجددون العصريون لا يجمعهم حزب أو مؤسسة أو هيئة ،لكنهم مجموعة من الناس يختلفون فيما بينهم اختلافا كبيرا ، فهؤلاء منهم العلمانيون ومنهم الزنادقة والملاحدة ،ومنهم عملاء صليبيين ،كما أن منهم المسلمين المبتدعين والمسلمين المجددين يدعون للتجديد العصري" .[23]

فتنسجم ظروف الخطاب الديني، وفق الفكر المحدد باعتباره مكلف بنعمة العقل، وتفضيله عن المخلوقات،"هذه الحرية الفكرية المحددة هي التي أنقذت الإنسان من مصير الحيوان".[24]

ويمكن أن تحدد تضمينات الواردة في القول، أي ما تم تبليغه بصفة ضمنية فنتوصل إليه من خلال التأويل التداولي الخاص بالعمليات الاستدلالية، "ويكون منطلقها التأويل اللساني للقول".[25] من أجل ذلك فكر المعاصرون في الحفاظ على ماء الوجه الأدبي للخروج من دائرة القدامى جملة وتفصيلا "والبحث عن سبيل أيسر وأشكال جديدة للتعبير".[26]

فمقارنة النص الخطابي التراثي تتطلب يقظة وتبصرة لماهية تراثية النص وسياقاته التي أوجدته ناهيك عن التحولات المفهوماتية المذكورة فيه "والتي انفصلت كليًا أو جزئيا عن مفاهيمنا الحاضرة(مفاهيم العصر)".[27] فوظيفة الحفظ والتبليغ مبرر قوي عنده ليسترجع السجع باعتباره إجراءً ترجيعيا ،مكانته بذهاب علة تحريمه خاصة وأن "عامل الإيقاع المبني على الاسترجاع والتكرار يُسهّل الحفظ" .[28]

لأن التعامل مع النص القرآني يستوجب قراءته في ذاته ومكوناته ومنها قدسيته،بصفته وحيا "ولأنه خارج عن مفهوم الزمن مع قراءته ضمن دائرة السياق في شقيه الزمني والمكاني الذي وجد من أجله أو وجد فيه".[29]

إن تحديد الأفكار والحوادث والشخوص والبدايات والنهايات قد يعطيك فكرة واضحة إلى حد ما ولكنه لا يعطيك "بأي حال صورة متبلورة لخطاب ديني" .[30]

إلا أن تمر عبر نقاط التفاعل التأويلي، وهي المنفذ الاستراتيجي الذي يمنحنا القدرة على عبور مسافات تأويلية مختلفة "ومنها استرجاع السيناريوهات التناصية التي تثبت في أذهاننا بعد قراءتنا للخطاب الديني".[31]

وقد اتسمت بسمات فنية معينة كفصاحة الألفاظ وسهولة التعبير ،والبعد عن التكلف والتعقل وحسن التضمين لآيات القرآن الكريم ،"والتراوح بين الإيجاز والإسهاب ،فقد تكون فقرات معدودة وتكون أكثر من ذلك فتطول الساعات".[32]

ولا يكتفي الخطاب الديني بذلك بل يتجاوزه إلى ادعاء ضمني وهو ما ارتبط بالعلل المذهبية.

والدافع في ذلك استنباط دقائق الشرع في الخطاب الديني "وتقرير تلك العلل علل المذهب وتمهيد الأصول".[33]

والصراع الحضاري شيء لازم للحضارات، ويمثل سمة جوهرية في تكوينها "وربما يكون هو السبب الحقيقي وراء ازدهار الحضارات ، وتفوق حضارة على الأخرى".[34]

والمواقع الخطابية على مستوى النص المثبت الأكثر ابلاغا هي تلك المواقع التي تتجلى فيها الصورة الأدبية واللغوية والتي "تمثل أظهر الأماكن على مستوى النسيج اللغوي".[35]

وقد كانت لغة الصراع حادة في العصور القديمة، يتراشقها الناس بصراحة فكل حضارة منتصرة تزهو بانتصارها وتنطق ثمرة نجاحها ،"وتتحدث بلغة القوة فتزعم لنفسها ولشعوبها المكانة اللائقة ".[36] ولا تتحقق جودة النص الخطابي الديني إلا إذا تشكلت الصورة من فقه الشيء المتصور واستيعاب أبعاده وهيئته التكوينية.[37]

آليات الخطاب الديني:

- الانطلاق من أرضية تراثية صلبة: تعرف أقوال السلف تطورا خصبا في التوظيف والاجتهاد والتوحيد، فيستثمر الخطاب كل النصوص والسياقات على أساس أنها غير قابلة للطعن ولا للجدال." وقد سبق أن أشرنا إلى أن المسلمين كانوا على وعي بوجود مجالات لفعالية النصوص، ومجالات اخرى لفاعلية العقل والخبرة لا فعالية النصوص فيها ... وحين يستند الخطاب الديني المعاصر إلى هذا الجانب من التراث فإنه يتعمد تجاهل الجانب الآخر مثل اتجاه أصحاب الطبائع".[38]

وذلك ما ارتبط بالأسلوب استدلالا وقام على جدال ومحاورة، والبناء التخاطبي لهذا المقام له دلالته في النص، "فهو مرتبط بالأسلوب الاستدلالي المعتمد فيها،والقائم على الجدال والمناظرة".[39]

وقد يظل البعض في فهم النصوص السالفة، وقد لا يتفطن إلا عقب ارتكاب بعض الكوارث، مما لا وجود لها في الدين أو تراثه الأصيل. فلابد إذا من صفاء الذهن في حالة التفكير الجيد، وذلك ما كان مسارا للبحث عند الفلاسفة بغية الاهتداء إلى رأي ثابت.

يؤدي ذلك كله إلى التعرف على النصوص في مصادرها المكتوبة، ومن ثم يمكن لرواد الخطاب الديني أن ينكبوا على دراستها وتطبيقها.

- أوجه التماثل والائتلاف بين الدين والنظريات الفكرية:

النظام اللغوي أو النصوص اللغوية لها مجال تسير فيه، ومع أنها خاضعة (أي نصوص الوحي) إلى خبرة البشر وتفعيل فهمها، ومن النصوص ما هو مرتبط ارتباطا وثيقا بالوحي الذي لا نقاش فيه، ومرده إلى العقل والخبرة الفكرية. ذلك أن رفوف الخطاب الديني زاخرة بالوسائل من مثل: المواعظ، والإرشادات والخطب والبرامج واللقاءات، وحِلَقِ الذكر.

ولا يكتفي الخطاب الديني بذلك بل يوحد بطريقة آلية بين هذه النصوص، وبين قراءته وفهمه لها "وبهذا التوحيد لا يقوم الخطاب الديني بإلغاء المسافة المعرفية بين الذات والموضوع، بل يتجاوز ذلك إلى ادعاء ضمني بقدرته على تجاوز كل الشروط، والعوائق الوجودية المعرفية".[40]

- مبدأ رد الظواهر:

تتفق جميع الديانات إلى إرجاع علة الوجود، إلى مبدأ واحد، وهو الله فالق الكون والمتصرف فيه. ولذلك فالخطاب الديني وليس العقيدة هو الذي يقوم بتفسير كل الظواهر الطبيعية والاجتماعية "يردها إلى ذلك المبدأ الأول".[41] والهدف الذي ينشده علم الدلالة هو الوقوف على القوانين، التي تتمّم وتغير المعاني وتطورها "والقواعد التي تسير وفقها اللغة".[42]

- بين علم اليقين وعين اليقين: يمكن الاحتراز من بعض الألفاظ المتعددة للخطاب الديني، والتي تبدو ظاهريا وكأنها مترادفات قد يتبادر إلى ذهنك أنها تحمل معنى واحدا، وهذا التساهل في عملية التمييز، هو العودة إلى الوراء، فتضع الحدود والحواجز في الخطاب الديني، ولربما بعض من المعيقات.

إن الخطاب الديني لا يتحمل أي خلاف جذري، وإن اتسع صدره لبعض الخلافات الجزئية. إن ظاهرة الجماعات الإسلامية مثلا، يصح أن يسمح بمناقشتها أو بالكتابة عنها إلا للعلماء، ذلك أن "أقلاما كثيرة جاهلة أو حاقدة أو مأجورة، خاضت في الموضوع بغير علم، وكتاب منير".[43]

وقد تعددت شؤون الأمة، بتعدد كل عناصر الحياة، والبشر على استعداد ادراكي بتنوع هذه الشؤون.

ففي الأمة رجال، ولكل جانب من جوانب الحياة رجاله أيضا عرفوا بنضج الآراء وعظيم الآثار وطول الخبرة والمران وهؤلاء الرجال هم "أولوا الأمر من الأمة ".

وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتمنحهم ثقتها، وتنيبهم عنها،" في نظمها وتسريعها والهيمنة على حياتها".[44]

وعندما تختل الموازين وتضطرب الأمور يدخل في نسق رجال الأمة، من لا يعطي القوس باريها وهذه هي أهم الملامح التي يشترك فيها دعاة التجديد العصري، والتي نتج عنها فساد عريض في فهم الدين وفقه الشريعة.

وهذا اتجاه مائع يدخل تحت عباءته، ويتدثر بردائه كثيرون، وأهل العلم الراسخون لهم تعبيرات منضبطة، يقينية في ذلك، فهم يتحدثون عن مقاصد الشريعة،" ومقاصد الشريعة معروفة مستنبطة بالاستقراء".[45]

- الخطاب الديني البعيد عنّا زمنيا

والمقصود من ذلك الزمن الذي ينتمي إليه صاحب الخطاب الديني باعتبار أن كل عصر يتميز عن سابقه ولاحقه، بمجموعة من المعطيات، وهذه النظرة بالغة الأثر، وتختلف تباعا للمشارب والميول والألفاظ بدورها تحيلنا إلى العصر الذي تتموقع فيه.

وبالدرجة نفسها من الوضوح يبدو إهدار البعد التاريخي،في تصور التطابق بين مشكلات الحاضر وهمومه ومشكلات الماضي وهمومه، وافتراض إمكانية صلاحية حلول الماضي للتطبيق على الحاضر، ويكون الاستناد إلى سلطة السلف والتراث،" واعتماد نصوصهم بوصفها نصوصا أولية تتمتع بقداسة النصوص الأولية".[46]

وهي سيطرة نموذجين متقابلين، لكل منهما أتباع سائرون على الدرب،ي نتج عن ذلك علاقة رغبة بين البشر ببعضهم، ولا يعني التنافر بينهم.

وتختلف شعب الإرشاد والمواعظ في الخطاب الديني ومن بين هذه الشعب شعبة الأخلاق بحيث يكون الربانيون الشهداء

والصالحون وفي ظلها يكون الأئمة والهداة والمرشدون دعاة للأخلاق الفاضلة التي تهذب النفوس وتصلح من شأن الفرد والجماعة، وتحذر الأخلاق السيئة التي تودي "بمعاني الانسانية الفاضلة وتسبب الشقاء في الحياة".[47] «...إن الحديث عن الزمان والمكان، يوقفنا أما تنظيم ثان .... إن تقنية المشاهد حين تنفرد بالدارس لبعض الوقت، تخفي عنه ما وراءها لانشغاله بعالمها الخاص .غير أنها تفتح في ذائقته سيلا من التساؤل المشروع عن العلل الحقيقية للتحولات الكبرى...».[48] وبذلك يتم الوصول إلى الحقائق الأدبية، التي تخدم الخطاب الديني، وأهم ما يؤدي إلى ذلك الطريق المختصر في سلك وسائله وسبله، وعندها تنتهي إلى تحديد المعنى الحرفي للألفاظ والتراكيب.

إن أهم ما قررته الدراسات اللسانية الحديثة في مبحث قيمة الرسالة الإبلاغية، هو "وجود مستمع أو متلق مثالي مستعد لاستقبال الرسالة الإبلاغية، خال ذهنه من فحواها مسبقا".[49]

وفي الأخير يمكن أن نقول: أن الخطاب في مجمله، ذو مرجعيات دينية متنوعة، تستمر وتتجدد رغم ارتباطها بشخصيات، أو اتجاهات ما، ويحسن بنا أن نمتلك نوابغ يقدمون الخطاب الديني، كمجال للإيمان الصادق والنية الحسنة، انطلاقا من تدعيم التآلف ونبذ التنافر، دون إفراط أو تفريط.

الهوامش:

[1] سعد بوفلاقة: دراسات في الأدب الجاهلي ، النشأة والتطور الفنون والخصائص: منشورات باجي مختار ، عنابة ، 2006، ص156.

[2] جورج غريب:من التراث العربي ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط3 ،1980، ص18.

[3] البشير التوهالي: تعريف المصطلحات في الفكر اللساني العربي ،دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط1،ص12

[4] قدرى حافظ طوقان: العلوم عند العرب ، دار إقرأ ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1983 ، ص03

[5] صابر الحباشة: المنحنى الدلالي: دراسات في الاشتراك الدلالي ووجوه المعنى ، دار الحامد للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط1 ،2013،ص03.

[6] نصر حامد ابو يزيد: نقد الخطاب الديني ، سينا للنشر ، القاهرة ، مصر ، ط2: 1994،ص104

[7] حمو الحاج ذهبية: لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب ،الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو ، الجزائر ،ط1 ، 2012،ص129

[8] حمو الحاج ذهبية: المرجع نفسه،ص 132.

[9] محمد العزب موسى: حرية الفكر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت لبنان . ط1 ، 1979 ص:101.

[10] جمال حضرى: المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،بيروت ،لبنان ،ط1 ، 2010،ص21.

[11] حمو الحاج ذهبية: المرجع السابق،ص 90.

[12] محمد العزب موسى:المرجع السابق،ص 90.

[13] محمد العزب موسى:المرجع السابق،ص92.

[14] عبد الملك مرتاض:بنية الخطاب الشعري: ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر ، 1999،ص34.

[15] أحمد المتوكل: الخطاب وخصائص اللغة:منشورات الاختلاف ،الرباط ،المغرب الطبعة الأولى ،2010،ص:14.

[16] عمر فروخ: الثقافة الإسلامية: المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1988 ، ص80.

[17] محمد بن شاكر الشريف:تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف،مجلة البيان،مكتبة الملك فهد الوطنية،الرياض،السعودية،ط2004،1،ص:42.

[18] عمر فروخ: الثقافة الإسلامية،ص80.

[19] عمر فروخ: العرب في حضارتهم وثقافتهم ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط2 ،1982،ص118.

[20] أحمد المتوكل:المرجع السابق،ص21.

[21] نصر حامد ابو زيد:المرجع السابق،ص144.
[22] محمد العزب موسى:المرجع السابق،ص93.
[23] محمد بن شاكر الشريف:المرجع السابق،ص47.
[24] محمد العزب موسى:المرجع السابق،ص15.
[25] فتيحة بوسنة: إنسجام الخطاب في مقامات جمال الدين السيوطي ، مقاربة تداولية ، منشورات مخبر تحليل الخطاب ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع ، برج البحري ، الجزائر ، 2012 ،ص146.
[26] عبد المالك مرتاض:المرجع السابق،ص12.
[27] عميش عبد القادر: الخطاب بين فعل التثبيت وآليات القراءة ، مركزية البنية وإمبريالية الدلالة ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع ، المدينة الجديدة ، تيزي وزو ، الجزائر ، 2012 ، ص93.
[28] جمال حضري:المرجع السابق،ص29.
[29] عميش عبد القادر:المرجع السابق،ص95.
[30] عاطف محمد يونس:مغالطات في النقد الأدبي:المؤسسة الجزائرية للطباعة ، الجزائر ،ط1 ، 1990 .ص71.
[31] فتيحة بوسنة:المرجع السابق،ص130.
[32] عمر عروة:لنثر الفني القديم أبرز فنونه وأعلامه: دار القيمة للنشر ، حيدرة ، الجزائر ، ط1 ، 2000 وص:35.
[33] محمد الخضري بك: تاريخ التشريع الإسلامي ، دارالكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الحادية والعشرون ، 1981 ، ص 180.
[34] عبد الحميد إبراهيم: الأدب المقارن في منظور الأدب العربي: دار الشروق ' القاهرة ، مصر ، الطبعة الأولى ، 1997 ، ص234.
[35] عميش عبد القادر:المرجع السابق،ص07.
[36] عبد الحميد إبراهيم:المرجع السابق،ص234.
[37] عميش عبد القادر:المرجع السابق،ص10.
[38] نصر حامد أبو زيد:المرجع السابق،ص 86.
[39] فتيحة بوسنة:المرجع السابق،ص108.
[40] ناصر حامد أبو زيد: المرجع السابق،ص78.
[41] ناصر حامد أبو زيد: المرجع السابق،ص81.
[42] عبد الجليل منقور:علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي،ومنشورات إتحاد الكتاب العرب،دمشق- سوريا،2001،ص18.
[43] ناصر حامد أبو زيد: المرجع السابق،ص89.
[44] محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر ، د ت،ص443.
[45] ينظر محمد بن شاكر الشريف:مرجع سابق،ص 75.
[46] ناصر حامد أبو زيد: المرجع السابق،ص95.
[47] محمود شلتوت:المرجع السابق،ص479.
[48] حبيب مونسي:المشهد السردي في القرآن الكريم،ديوان المطبوعات الجامعية،بن عكنون- الجزائر،ط2010،1،ص ص 100-104.
[49] عبد الجليل منقور:المرجع السابق،ص211.